صدر عن (المدى)

مغامرات في بلاد العرب

- "أكرر عليك ، يا افندم ، انني رأيت ذلك رأي العين". كان المتكلم نجار طارق بك (Najar Terek beg) ، وهو رحال تركي ، وضابط سابق في سلاح الفرسان ، وصديقي الذي وثقت به في اسطنبول ، والذي غمرني بالفرح عندما التقيته في حلب.

كنا نحتسي القهوة في حديقته الصغيرة بعد لعبة بليارد، وكان يحكي لي عن أشياء لو صدرت عن أي رجل آخر لصدقت عنها صدوف المرء عن أباطيل. كنا نتحدث عن اليزيدية، تلك الطائفة الغامضة المنتشرة في الشرق، ولاسيما في شمالي بلاد العرب، والتي يخشاها ويسخط عليها المسلمون والمسيحيون لأنها تعبد الشيطان.

أخبرني كيف زار منذ ثلاث سنوات حصن اليزيدية المقدس في جبال الأكراد القريبة من الموصل شمالي بغداد، وعن معبد غريب بني على مصاطب صخرية منحوتة في سفح الجبل المنحدر، ولم يسمح له بالدخول إليه، والظن أنه كان يحوي تمثال الطاووس النحاسي العظيم، ويؤدي إلى كهوف تحت الأرض حيث تجري طقوس عبادة الشيطان، وكيف رأى أحد "أبراجهم السبعة" الهائلة، أو "منازل القوة"، وهي أبنية عالية بيضاء مخروطية الشكل تلمع من أعاليها أشعة ساطعة - ولما قاطعته إنما قاطعته ههنا.

لقد قاطعته لأني قد سمعت عن تلك الأبراج السبعة أكثر من مرة قبلاً، وظننت أنها أسطورية تماماً، شأن المملكة الصينية التي تحت الأرض، أو كهوف السندباد. والحكايات التي سمعتها قبل ذلك، وكانت واسعة الانتشار في الشرق، يمكن أن تكون هذه خلاصتها:

ثمة سلسلة من أبراج سبعة على قمم جبال متباعدة تمتد عبر آسيا من شمالي منشوريا عبر التبت وبلاد فارس ثم إلى كردستان. وفي كل واحد من هذه الأبراج يقيم على الدوام أحد كهنة الشيطان، وهؤلاء الكهنة يتحكمون في أقدار العالم نيابة عن الشيطان عن طريق "بث" ذبذبات سحرية خفية.

ثم إنني التقيت رجلاً غير مؤمن بكل هذا الهراء، وأخبرني بكل هدوء أن تلك الأبراج، مهما كانت غايتها، فهي موجودة بالفعل ومكرسة لخدمة الشيطان، وأنه قد رأى أحدها رأي العين.

ومع أنه قد ذهب إلى هناك متنكراً في زي تاجر كردي، فقد أكد لي أنه يمكنني أن أذهب كما أنا وليس في ذلك أية مخاطرة، وأن أرى أكثر مما سمح له بأن يراه. قال لي: إن اليزيدية يحبون الذين يتكلمون الإنكليزية، لأن الإنكليز الذين تولوا السلطة في العراق قد وضعوا حداً للقتل والمجازر التي كانوا يتعرضون لها في ظل الحكم الإسلامي.

وقال: إن مدينتهم المقدسة تدعى (شيخ عادي)، وهي لا تؤدي إليها أي طرقات، بل يمكن الوصول إليها عبر ممرات جبلية على ظهور البغال انطلاقاً من الموصل.

دخلنا إلى مكتبته، وكنت أنا والسيدة سيبروك قد توقعنا أن نعبر إلى العراق عاجلاً أم آجلاً، ولكن أملنا أن نرجع أولاً إلى دمشق، ونذهب مع إحدى قوافل شركة نيرن (Nairn) الإنكليزية للنقل التي تقل سياراتها المحمية المسافرين والبريد البري من مطار بيروت إلى بغداد. ولكن طارق بك أخبرني أن السفر من حلب إلى الموصل مباشرة بالغ الخطر، لذلك يمكنني أن أوفر الوقت والمال باستئجار سيارة خاصة، واجتياز شمالي بلاد العرب بالسير محاذاة وادي الفرات من حلب إلى بغداد، وأما السفر بعد ذلك من بغداد إلى الموصل فسيكون أمراً سهلاً.

عاد معي في تلك الليلة إلى فندق بارون (Baron)، حيث نزلنا انا وكاتي، وحيث اكتشفنا شاباً اسمه جورج كان أكثر الأشخاص خبرة بالمكان مع أنه لم يكن إلا الخادم الأول في الفندق. عثر على صاحبي (كراجين) برغم الوقت المتأخر، وتحمست كاتي للتغيير المقترح في الخطط. فتبادلنا الرأي، وجادلنا، وساومنا وأخيراً وافق أحد الرجلين على تأجيرنا سيارة وسائقاً مقابل عشرين ليرة ذهبية.

قيل لنا: إن علينا أن نتمكن خلال ثلاثة أيام من القيام بالرحلة الشاقة على طول وادي الفرات إلى دير الزور، ومن هناك إلى عنه (Anah)، ثم إلى بغداد عبر الصحراء الجنوبية الشرقية.

كان ذلك ليلة أربعاء، واتفقنا أن نستعد للرحلة في اليوم التالي، وننطلق فجر يوم الجمعة.

ولما عدنا ظهر يوم الخميس من السوق الذي ابتعنا منه نظارات واقية وخوذاً وطعاماً معلباً، وجدنا صديقي طارق بك ينتظرنا. لقد عثر على عربي يمكنه أن يعطينا مزيداً من المعلومات عن اليزيدية، وكان يريد أن يجمعني به عصر ذلك اليوم. وتبين أن ذلك الرجل، واسمه وولي فدن (Walid Fadan)، كان تاجر أقطان من سكان الموصل سابقاً. تحدثنا معه في حانوته القريب من السوق. أكثر من الهذر في البداية، ولما ألححنا عليه اعترف بأنه لم يختلط باليزيدية قط، وما يعرفه عنهم أخبره به "قريب" كان يتاجر معهم، كان حديثه شديد الوضوح، ولكنه كان صعب التصديق.

قال: إن اليزيدية يحكمهم أمير يدعى مير سعيد بك (Mir Said beg) الذي قتل والده وخلفه على الطائفة. وتحدث عن باحة معبد تعبد بها أفعى سوداء، وعن قرابين عند قاعدة برج أبيض. وروى حكاية أكثر غرابة من ذلك عن عادة من عادات اليزيدية، وهي أنهم يحضرون للكاهن الأكبر كل ليلة فتاة عذراء يطوق خصرها حزام ثقيل من فضة، وأن أحداً من اليزيدية لا يأخذ عروسه إلا بعد أن تخضع لطقوس مقيتة.

لم اعتقد آنذاك أن في تلك القصة شيئاً من الحقيقة - ومع ذلك ففي حوزتي الآن بالفعل الزفاف اليزيدي الفضي الثقيل، وهو حزام عريض من الأفضل أن يسمى مشداً - ولقد اعترف لي أبناء الطائفة أنفسهم، عندما وصلت أخيراً إلى شيخ عادي، ووثقوا بي بعض الثقة، بأن "حق الليلة الأولى" موجود، وهو جزء من العرف عندهم، على أن ذلك الحق لا يمارسه المير الحالي.

ولكنني استبق الأمور في تدوين ما يجب أن يتضمن بعض التفاصيل على الأقل عن مغامرتنا في وادي الفرات، وإن كنت لا أدعي أن ما اكتبه هو قصة رحلة.

كانت انطلاقتنا من حلب، والساعات القليلة الأولى من رحلتنا، خالية من الأحداث. قطعنا سهلاً أجرد على جانب طريق كان مجرد ممر، واجتزنا قرى منازلها مثل خلايا النحل مبنية بالطين على شكل مخروط، وبلغنا، بعد خمسين ميلاً أو أكثر، النهر الأصفر العريض المنساب بين ضفتين من الطين المشوي القاسي.

سرنا بمحاذاة ضفته الجنوبية في سهول صلبة ومستوية مثل أرضية حلبة التزلج. وسائقنا داود، وهو شاب في الثلاثين نحيل، ولكنه قوي، كان يبدو في ثياب الخاكي الملوثة بالشحم، وقبعته المصنوعة من جلد الغنم الأسود، جديراً بالثقة التامة. غير أني استأت لما اكتشفت أنه مسيحي، وبالتالي ربما كان أرمنياً، مع أنه أنكر ذلك أشد الإنكار.

طاب لنا السير في الصباح الباكر، ولكن لفح الهاجرة في الواحدة كان شديداً. وكانت قد بدأت تظهر عن ميمنتنا مرتفعات طينية ورملية تعلوها أحياناً آثار هائلة، وما لبثت أن ظهرت أجرف شاهقة على بعد مئات الأقدام على ضفة النهر، ثم على بعد ميل ونيف.

وفي غضون كل ساعتين أو ثلاث ساعات كنا نرى أحياناً حصوناً تركية قديمة، بعضها مهجور، وبعضها أقام فيها الفرنسيون حامية قليلة العدد.

توقفنا عند إحدى تلك المواقع ظهراً لكي نملأ بالماء ثانية خزان تبريد المحرك، والقربة المعلقة على زجاج الواجهة، فخرج بضعة أنفار من شرطة الصحراء وأحاطوا بنا وقد هاجوا واضطربوا.

أرادوا أن يعرفوا سبب تأخر باقي القافلة، ونصحونا بالانتظار حتى يلحقوا بنا. فاجأتهم رؤية امرأة في السيارة، ولما علموا أننا مسافرون وحدنا، حاروا في أمرنا.

تفحصوا جوازات سفرنا المؤشرة للسفر من سوريا الفرنسية إلى العراق الإنكليزي من غير تحديد الطريق، وهزوا رؤوسهم وكان الأمر لا يعنيهم، ثم أخلوا سبيلنا.

ولما انطلقت بنا السيارة مقعقعة، أخذ داود يغمغم. سألته عما دهاه، فتذمر من سفرنا وحدنا، وقال: ربما صح هذا السفر قبل شهر، أما الآن وقد تغيرت الظروف، فإن السفرة "ملعونة".

زاد سرعة السيارة إلى حد الخطر، فطلبت منه أن يبطئ السرعة، فقال لي: إن أمامنا سيارة فيها سائق وضابط فرنسيان، وإذا لحقنا بهما فقد تصبح السفرة "زين".

ولم ندخل في الأصيل حتى رأينا الأجرف الشاهقة تندفع نحو النهر وكأنما لتسد طريقنا، واعتقدت أننا سوف نجد معبراً أو جسراً هناك. وبدلاً من ذلك، انعطفنا نحو اليمين إلى ممر صخري يتعرج بين الأجرف، وكان ذلك الممر أول درب سلكناه يشبه الطرقات الممهدة، وأظن أنه قد شق منذ آلاف السنين للمركبات القديمة.

ولما سرنا خلف الأجرف الصخرية، دخلنا في "ارض سيئة" مرتفعة، تدلت على طريقنا الضيق صخور جيرية بيضاء ساطعة، كان بعضها منشقاً عن أصله. رمتنا الشمس بالحر من قبة السماء، ولما خلعت نظارتي الواقية، وتلقيت كل لفح الحر، كان الأمر يشبه السير عبر الجمر وخبث المعادن في أتون هائل شديد الحرارة. اضطررت إلى ارتداء معطفي، ولفت كاتي نفسها ببطانية، وغطت يديها أيضاً وقاية لهما من الاحتراق.

وبعد ساعة سوعاء دار الطريق حول جرف، فرأينا على بعد مئة ياردة أمامنا، وعند منعطف آخر، رأينا عربيين كوفيتاهما تغطيان وجهيهما حتى العيون، مع بندقيتين جاهزتين في أيديهما - ولكن أزرار النحاس، وشارات الزي كانت أبهر الأشياء في ذلك الجو الساطع. سرتنا رؤيتهم، ولم نحسبهم قطاع طرق ولو لحظة. غير أنهم أوقفونا بانفعال شديد، وهناك أدركنا السيارة التي كان داود تواقاً إلى السفر في رفقتها.

وحقيقة الأمر هو أنها سدت الطريق. لقد حطمت رصاصات واجهة الزجاج، ومزقت رصاصات أخرى جهاز التبريد. كانت السيارة خالية، وفي الظل الضيق قبالة العجلات استقلت جثة السائق وعليها عباءة، وكان الذباب قد أخذ يجتمع. أما النقيب فقد كان مفقوداً، ثم عثر على جثته بعد خمسة أيام في أسفل وادٍ قريب. وقد كتبت وكالة اسوشيتد برس (Associated press) مقالة عن هذه الحادثة آنذاك، ثم كتبت مقالة أخرى بعد أشهر أوضحت فيها كيف ألقي القبض على القتلة، ثم شنقوا في دمشق.

كان وضعنا فظيعاً، ولاسيما بالنسبة إلى كاتي التي كانت هادئة وشاحبة، في حين استحوذ الذعر على داود. وما كنت لألومه كثيراً على ذلك، فأنا نفسي شعرت بالإحباط. ولكن دير الزور كانت على بعد ساعتين، ومن الواضح أن الأمر المعقول هو أن نتابع سيرنا إذا كان ذلك مسموحاً به. والدركيان العربيان لم يسمحا لنا بالمضي فقط، بل نصحانا بأن نواصل السفر. فالمخافر قد تنبهت، ومن المستبعد أن يحدث اعتداء آخر هناك في يوم واحد.

ولكن سائقنا داود لم يوافق. وكان وجهه الأسمر الشاحب المشرب خضرة يسيل عليه العرق من تحت قبعته المصنوعة من جلد الغنم الأسود. أراد أن يرجع، ويقضي الليل في أحد حصون الصحراء، ثم يتابع سيره إلى حلب في اليوم التالي. وقد أكد لي أن السفر "مستحيل"، وأقسم بالله أن لا طاقة لنا به، وبالتالي فإن مالي سيعاد إليّ. ولما وجدني أعارض هذه الخطة، قال: إن التصرف الآخر الآمن هو البقاء حيث كنا في حماية الدركيين حتى يأتي آخرون نستطيع مرافقتهم إلى دير الزور. ولكن الدركيين قالا: من غير المحتمل أن يذهب درك إلى الدير حتى اليوم التالي، كما علمنا، فالجميع سوف ينشغلون بالبحث عن القتلة. وبعد سباب وصياح أفلحت أخيراً في جعل داود يدير محرك سيارة الفورد، ويتابع السفر. وبالطبع لم يحدث أي شيء آخر إلا اشمئزازنا من داود، وتعرضنا المتكرر لخطر الانقلاب بسبب سياقته المتوترة للسيارة.

كانت الشمس لاتزال عالية عصر ذلك اليوم حين تراءت لنا دير الزور، وهي مدينة صحراوية كبيرة ذات بيوت مستوية السطوح، مبنية على جانبي النهر. إنها الحاضرة المعزولة في وسط بلاد العرب الشمالية. كان يخفف من رتابة استوائها القباب، والمآذن، وأعمدة إرسال اللاسلكي في المواقع الفرنسية، والتي كانت وسيلة اتصالها الوحيدة مع العالم الخارجي ولما وصلنا إلى مخفر الدرك في ظاهر المدينة خرج إلى لقائنا رقيب محلي في بزة الخاكي، ولكنه كان حافياً حاسر الرأس. كانت الأخبار قد بلغتهم، غير أنه أبدى حرصه على معرفة المزيد. كان الرقيب لطيفاً، وأنيساً، مطلق اللسان بالفرنسية، وقد تعجب من شجاعة السيدة (Le Courage de Madame).

لم يكن في الدير فندق يوفر أسباب الراحة للرحالة الأوروبيين، لذلك نزلنا في خان محلي، أوقفنا السيارة في باحة الخان، وذهبنا إلى غرفة في الطابق الثاني جدرانها وأرضيتها وسقفها من حجر، ونوافذها ذات قضبان متعارضة من حديد مثل زنزانة كبيرة. كانت خالية من الأثاث تماماً عندما جر داود امتعتنا إليها. وجاء صبي في السادسة عشرة يلبس عمامة وقميصاً قصيراً بالياً يثبته نطاق، ويحمل مكنسة، وجرة ملأى بالماء، ونظف الغرفة. أحضر بعد ذلك سريران من حديد، وبسط عليهما فيما بعد فراشان محشوان بالقش خيط عليهما قماش قطني جديد، إضافة إلى لحافين لونهما رمادي حائل.

ساورني القلق أن لا يسمح لنا بالمضي في رحلتنا اليوم التالي، لذلك ذهبت إلى زيارة الآمر الفرنسي في أثناء استلقاء كاتي للراحة. قال لي: إن مغامرتنا تنطوي على حماقة، غير أن متابعة السفر إلى بغداد ربما كانت، في رأيه، آمنة أكثر من العودة إلى حلب. أعرب عن أسفه لأنه لم يستطع أن ينزلنا في فندق، وأعطاني زجاج ماء بييريه (perier) للسيدة سيبروك، ثم اصطحبني إلى مطعم محلي صغير حيث شربنا بيرة ألمانية ممتازة وباردة.

شعرت بالتحسن، فتجولت في المدينة، وشاهدت النهر، وأخذت صورتين، أو ثلاث صور قبيل الغروب، وأخيراً عدت إلى كاتي التي كانت مستغرقة في النوم.

ندمت على ما جرى بيني وبين داود. لقد شتمته في حقيقة الأمر بكل ما كنت أعرفه من ألفاظ عربية، وألفاظ إنكليزية اعتقدت أن يفهمها، لذلك استدعيته، وطلبت منه الإشراف على عشائنا ومشاركتنا إياه. كان العشاء طعاماً معلباً من سلتنا، إضافة إلى صحن كبير من لحم الضأن المسلوق في مطبخ الخان، ومزيد من البيرة التي أرسل داود فتاة صغيرة رثة الأذيال بغية إحضارها. أتى بطاولة واطئة وجلسنا على السريرين.

سعد داود بالمصالحة، ولكنه ما لبث أن أزعجنا برمي العظام، وقشور الخيار، وعلب السردين وغيرها من الفضلات على أرضية الغرفة. غير أنه كان يعرف العادات أكثر مني، إذ جاء صبي مرة أخرى بعد أن أنهينا عشاءنا حاملاً جرة ماء ومكنسة، فأزال النفايات، وصب الماء على الأرض مرة أخرى، وكنسها تماماً. توقعنا أن يزعجنا البعوض. غير أننا متعبين للغاية بحيث أن جيشاً منه كان عاجزاً عن إبقائنا يقظين.

إن نهر الفرات ينعطف شمالاً عند دير الزور، وبدلاً من مجاراته في اليوم التالي، اندفعنا عبر البلاد، وسرنا يوماً في صحراء صلبة الأديم والحصى، مستوية أحياناً، وأحياناً فيها اخاديد وسلاسل تلال، فاضطررنا من وعورتها الشديد إلى التباطؤ في السير.

اشتد حر النهار، واصبحت مؤلمة ملامسة المقاعد الجلدية، والهيكل المعدني للسيارة. هبت من الجنوب ريح مثل أنفاس أتون. وكنت ارتدي قميصاً، وبنطالاً قصيراً مزموماً عند الركبة، ولكنني اضطررت إلى ارتداء معطفي مفضلاً (أن اتحمص على أن أنشوي). أما كاتي فقد أرغمت منذ وقت طويل على ارتداء قفازين ومعطف صوفي ثقيل بما أن جلدها قد تبثر بالفعل داخل ثوب الحرير الرقيق.

لقد ثبتت وشاحاً طويلاً على خوذتها، ولفت به رأسها وكتفيها. ثم أخذت حواشيه تنحل وتخفق في الريح، ولم تجد ما يكفي من الدبابيس من أجل تثبيته. وظل الوشاح ينحل، ويصفق وجهينا معاً جاذباً خوذة كاتي عن رأسها. رثيت لها في البداية، ثم شاط بي الغضب، وصرت أدعو الله أن يلعن النساء جميعاً. لقد كره واحدنا الآخر، فما كنا فيه كان أسوأ من القتل والقتلة.

وأخذت أشياء تئز قبالة كتفي، وقبالة جانب السيارة. خيل لي أنها أحجار صغيرة، غير أني تبينت أخيراً أنها جنادب. وما لبثنا أن دخلنا في سحب منها. هجمت على زجاج السيارة، ودخلت إليها من جانبها. والجانب التي لم تؤثر فيها الصدمة زحفت علينا. نسينا ما بيننا من بغضاء، وأخذنا ندفع الجنادب إلى الخارج. كانت تبصق "عصير التبغ" مثل أي جنادب مسيحية، ولكن أعدادها الكبيرة انتشرت مثل طاعون فرعون. وسرعان ما ذهبت فجأة مثلما أتت. لقد اجتزناها، وخلفناها وراءنا. تبادلنا أنا وكاتي الابتسام بارتباك، وتصالحنا.

❖(في جبل عبدة الشيطان) فصل من كتاب مغامرات في بلاد العرب للمؤلفة آن بلنت الذي سيصدر قريباً عن دار المدى بدمشق ترجمة أحمد ايبش.

مملكة القسوة

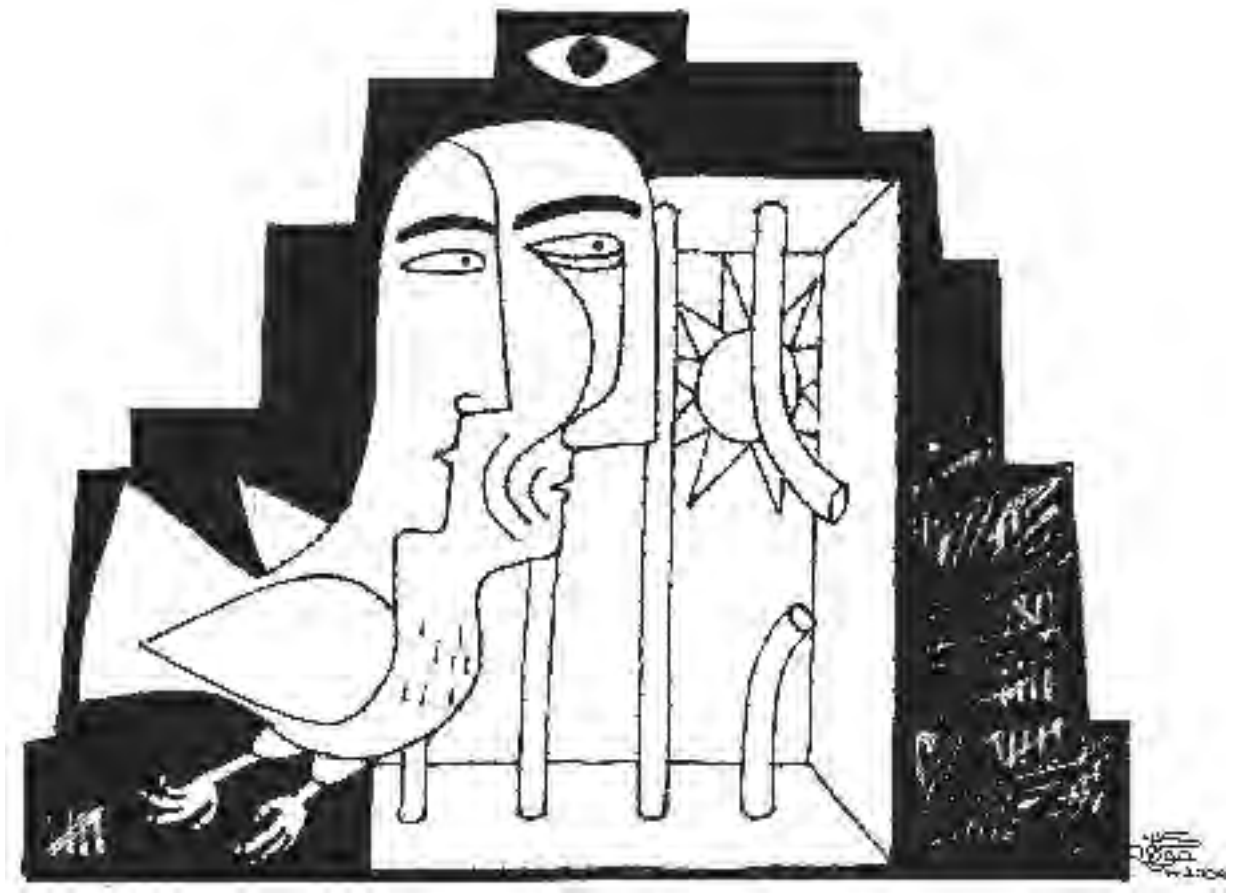

طاهر هراطة عباس

احكم (المعلم الشيخ) ضماد جبهته النازفة، كانت يداه ترتعش وهو يعقده باحكام حول راسه، ومع ذلك فقد شعر بأن جرح جبهته العميق ما زال ينزف دما عبر نسيج الرباط، فلمس بطرف اصبعه النحيل موضع الجرح فاحس بلزوجة دمه ودفئه، فسرت بداخله ارتعاشة مبطنة بالخوف والمرارة أزاحت بعضا من مكنونات صبره وحلمه، اذ ذاك تلمست الكآبة طريقها الى سحنته فارتدى وجها صارما غريبا على جلاسة الصامتين، والذين ادمنوا سماعه عندما شحت منابع عزيمتهم.

وكانت تلك الجلسات الطويلة حول موقده الباعث للسكينة والدفء تبدو لبعضهم محض إنصات لتأويلات يصعب تصديقها، لكنهم جميعا ودون استثناء كانوا ملاحقين بقلق يقضم روح الاستكانة واللامبالاة المستقرة في اعماقهم، وغالبا ما تتحول ليالي الشتاء الطويلة الى كوة لمخاوف كانت تستثيرهم منذ تفاقم الاحداث.

تاملهم (المعلم الشيخ) بصفوفهم المبعثرة في حجرته الواسعة فبدوا محبطين واكثر ميلا للصمت، اطبق على رغبته في تقريعهم بعد استعادته لهدوئه فحاول ان يعيد تصوره للاحداث الى بدايتها الاولى :

-: انسلت مدن الحجر المطمورة في منا في النسيان من رحم القرى القاسية... في الماضي البعيد كان اولئك الرجال القساة يقتلعون قلوب بعضهم البعض في ساحات المعارك من اجل حفنة ثمار جافة... كانت القسوة والهة الموت منظومة عبادتهم المنقرضة، ولهذا فقد اغضبوا كل الالهة فحلت عليهم لعنة النفي في باطن الحجر، كاد نسلهم ينقطع لولا نزق بعض الالهة الذين افشوا سر قيامتهم لالهة الظلام والصقيع... ففي الليالي الباردة حين تنطفأ المواقد وتذوي جمراتها، يستنهض الصقيع كل طاقته ليشق الحجر المطمور، فتنسل اشباح الرجال القساة المنفيين من عالمنا بقاماتهم الضخمة واشكالهم المرعبة... يجوبون طرقات الليل المقفرة بحثا عن كائن ما ليقدم اضحية لالهة الموت والقسوة وكلما زادت الاضاحي وتفشى طاعون الانزواء اقتربت قيامة بعثهم...

الان اصبح بعث مملكة الظلمة والموت يلامس مخيلة جلاس المعلم الشيخ فتسربت القشعريرة في الاجساد التي اقلقها تدفق الاشباح الى مدينتهم، فاقتربوا من بعضهم، تلاحمت اكتافهم، كانوا يستجيرون بدفء اجسادهم المتلاحمة من انبعاث مملكة الظلم، ومضوا يستذكرون قصص الجدات عن الايام المغبرة، حين كان الرجال القساة يختطفون الصبايا والرعاة الصغار... لكن حكايات العجائز كانت تتحدث عن سيل عارم اطاح بمملكة القسوة، فاختمرت في ذهن احدهم فكرة السيل :

-: لنقدم الاضاحي ونجعل اماكن عبادتنا تضوع برائحة المسك والبخور الثمين، سنصلي جميعا... فلعل سيلا اخر يطيح بهم.

اخفق احدهم في حبس مشاعره، كان فتى مخلصا لمعلمه الشيخ، فبدت له فكرة البخور والاضاحي محض هروب اخر من مواجهة لابد ان تحدث :

-: قلة فينا اهملت صلواتها، ولن ينفع البخور ونذور الشمع والزيت وليست حكاية السد مؤكدة ! لقد قتل حراس البوابات احدهم وحين عاينه الحكيم ادهشه ان يكون الكائن اجوف ! وهم يحاولون كل ليلة طمر نبعنا ولو استمر الامر هكذا سيشح الماء عن مدينتنا، وبالامس ايضا قتلوا بضعة رجال من حراس السور، شقوا بطونهم وملاؤها بالحجارة والنجاسة، ولقد تجرأ احدهم هذا اليوم وتسلل الى باطن مدينتنا فاصاب بحجره جبين شيخنا المعلم...

كادت نار الموقد تخمد ، اشار المعلم الشيخ الى احدهم فاضاف بضع قطع من الخشب الجاف، سرعان ما دهمتها السنة اللهب عندما توالى بضعة رجال منهم على النفخ بين الجمرات الذاوية والحطب، فزادت السنة اللهب من حدة الضياء والدفء، فيما دارت عليهم كاسات من شراب ساخن.

كان الشيخ يراقبهم مليا اكمل البعض منهم احتساء شرابه ولاذ بالصمت فيما كان البعض الاخر يرتشف على مهل، كانت رؤية الشيخ واضحة منذ ظهور تلك الكائنات المخيفة، وكان يستشعر حالة الفزع التي امتلكت دواخل الناس ويدرك ايضا ان البعض كاد يستسلم لقدرية فاجعة، وظل يعتقد على الدوام بان اثارة عواطفهم لن تقدم الا فورة مؤقتة تفقد عنفوانها عندما تصطدم بالعقبة الاولى، في اعماقه فكرة انضجتها سنوات عمره الطويل وبحثه الدائم عن بوابات الامان والسكينة... فقطع صمت الجلسة تساؤل احدهم :

-: لماذا نحن ايها المعلم الشيخ ؟

-: لاننا سادة الانهار العذبة والينابيع الباردة، وحراس بوابات المعرفة... من هذه القلعة صار للفظة شكل وللاشياء اسماؤها... نحن صناع الحرف الاول... من شجر الغابات البكر اقمنا مدينتنا، ان لرائحة البلوط والصنوبر والارز عطرا يضوع بالازقة والحواري... فان تسيد اشباح الليل واعادوا قيامة مملكتهم فسوف نقتات على الحجر ونمشي على اربع ولن تلد نساؤنا غير وشاة جياع يقتطعون اثداء امهاتهم الجافة مقابل رغيف خبز اسود...

هزتهم تصورات المعلم الشيخ واعتصرتهم مثل الة ضاغطة عظيمة، فتفتت روح الاستكانة وذاب الخوف في دفء العزيمة التي نمت في اعماقهم عندما تخيلوا مدينة خربة وارغفة من تراب واناسا يلوكون ذكريات مجدها البائد في افياء العبودية المحتملة... انتفض احدهم من مكانه وهو يرتجف غضبا :

-: انا سوف...

قاطعه الفتى المخلص لمعلمه الشيخ :

-: بل نحن جميعا...

قال الشيخ : اجل انتم دون استثناء... لم تعد الالهة شديدة الاهتمام كما كانت ولن يدلكم احد على طرق الخلاص... احشدوا كل البنائين والزجاجين وصناعكم المهرة... أسألوا نساءكم شاورا أبناءكم، انتبهوا لتقاطع الاشياء وتضادها، ثمة حكمة كامنة فيها يمكن التقاطها... ستجدون طرقا جديدة لنصركم الوشيك.

التمس الشيخ الراحة لجسده الواهن، فاتكأ على وسادة فراشه... اقتربوا من بعضهم شكلوا حلقة حول نار الموقد كانت رؤاهم المبعثرة تميل للتوحد وهم يتحاورون رغم صمت البعض، وحين استأذنوا بالانصراف تلاقفتهم دروب مدينتهم القلقة، فبدت للعديد منهم ان تلك الفسحة القائمة بين منتصف الليل والنهار الجديد ستكون اطول مما يجب، كانت لهفة الاستعداد ليوم عمل واعد تطرد مخاوفهم وتشيع فيهم دفقا من عزيمة مؤكدة.